رأت غمامة تُظلّه!!

روى ابن سعد عن محمد بن عمر عن أصحابه ، فذكر الخبر وفيه حادث شقّ صدره ﷺ لما بلغ أربع سنين ، ثم قال: فنزلت به آمنة بنت وهبٍ وأخبرتها خبره ، وقالت: إنّا لا نَردُّه إلاّ على جدْع أنفنا ، ثم رجعت به أيضاً فكان عندها سنة أو نحوها لا تدعُهُ يذهب مكاناً بعيداً ، ثم رأت غمامةً تظلُّه ، إذا وقفَ وقفَتْ ، وإذا سارَ سارت ، فأفزعها ذلك أيضاً من أمره ، فقدمتْ به إلىٰ أمّه لتردّهُ وهو ابن خمس سنين ، فأضلّها في الناس فالتمستهُ فلم تجدهُ ، فأتت عبد المطلب فأخبرته ، فالتمسهُ عبد المطلب فلم يجده ، فقام عند الكعبة فقال:

لا هُـــمَّ أدِّ راكبـــي محمـــداً أدِّه إلـــيَّ واصطنـــع عنـــدي يـــدا
أنـــتَ الـــذي جعلتَـــهُ لـــي عُضـــدا لا يُبعـــد الـــدهـــرُ بـــه فيبعـــدا
أنتَ الذي سمّيته محمّدا[1]

أجل!

كيف لا تخافين يا حليمة السعدية على ذلكم الطفل ، وهو الذي سيكون له شأن عظيم؟ .

وكيف لا تظنّين أن الغمامة تظلّه وهو الذي سيكون سيد الأنبياء والمرسلين؟ . .

وكيف لا يبحث عنه جدّه عبد المطلب ، وهو الذي كان يتوقّع أنه سيكون من الذين يُشار إليهم بالبنان .

---

(١) الطبقات الكبرىٰ ، ابن سعد: ١/ ١١٢ .

وكيف لا ينغمُّ عبد المطلب ويُصاب بالهمِّ وهو يبحث عنه صلوات الله عليه؟.

وكيف.. وكيف، وهو الرسول ﷺ الذي من أجله أخذ الله سبحانه العهد علىٰ كل من سبقه من الأنبياء والرسل أن يتبّعوه ويسيروا على منهجه إن هم أدركوه؟.

نعم، لقد كان ذلك في مشهدٍ ربّاني رائع: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ٨١ ـ ٨٢].

سيّدي يا رسول الله:

هـذا النبـيّ الهـاشمـيّ محمّـد ... هـذا لكـل العـالميـن رسـولُ
هـذا الـذي ردّ العيـون بكفّـه ... لمـا بـدتْ فـوق الخـدود تسيـلُ
هـذا الـذي شَـرُفَ الـوجـود بهـديـه ... منهـاجـه للسّـالكيـن سبيـلُ
هـذا الغمـامـة ظلّلتـهُ إذا مشـىٰ ... كـانـت تقيـه إذا الحبيـب يقيـلُ
صلّـى عليـكَ الله يـا علـم الهـدىٰ ... مـا لاح بـرقٌ فـي السمـاء دليـلُ

وأما نحن الذين كُتب لنا أن نعيش في عصر الفتن، فلا حلّ لمشاكلنا إلاّ بالرجوع إلىٰ اتباع القرآن الكريم وما ورد في سنّة سيّد الأنام عليه الصلاة والسّلام، مصداق ذلك قول النبي ﷺ: «تركتُ فيكم أمرين لن تضلّوا ما تمسّكتم بهما: كتاب الله، وسنة رسوله»[1] سيدي يا حبيب الحق يا أحمد:

الحـق أنـتَ وأنـتَ إشـراق الهـدىٰ ... ولـكَ الكتـاب الخـالـد الصفحـاتِ
مـن يقصـد الـدنيـا بغيـركَ يلقهـا ... تيهـاً مـن الأهـوال والظلمـاتِ
لمـا أراد الله جـل جـلالـه ... أن يخـرج الـدنيـا مـن العثـراتِ
أهـداكَ ربـك للـورىٰ يـا سيّـدي ... فيضـاً مـن الخيـرات والنفحـاتِ

* * *

(١) الموطأ، الإمام مالك: ٢/٨٩٩.